كتاب "المواهب"
ومخالفات الملالي لشيخه ابن يوسف السنوسي التلمساني[1]

د. جمال الدين بوقلي حسن
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان– الجزائر

ملخص

إن المخطط الذي ألفه محمد المَلالي في مناقب شيخه ابن يوسف السنوسي التلمساني (المتوفى في 1490 م)، والذي اعتمدنا عليه في إعداد هذا المقال، ما يزال مخطوطا ينتظر من يحقّقه. تمكن أهمية المخطوط في فن تقديم السير، وما ترتب عنها من أخبار عن حياة الناس التاريخية والاجتماعية والثقافية الذين عاشوا في عهد المؤلف.
القصد من هذا المقال، هو إبراز مخالفات التلميذ لشيخه، أهمها :
–أولا، اختزال مناقب شيخه في كلمة "وليّ" ؛
–وثانيا، طمس خصوصيات شيخه المعروف بشغفه بالتوحيد وسعيه إلى نشر هذه التعاليم بين سائر فئات المجتمع، ودعوته إلى تدريس المنطق، وطريقته العقلية في تأويل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومنهجيته العقلانية في تناول المسائل الإلهية ؛
–وثالثا، مخالفاته لشيخه في مفهوم الذكر، وفي محاربة التقليد.
هذا على الرغم من أنّ المَلالي معروف بتقصير ذاكرته، وغياب التعليل في تقديم بعض الأخبار التي ينقلها، ولجوؤه المكثف للاستطرادات في كتاباته. ومع ذلك، فإن الملالي ساهم في إنقاذ تراث السنوسي من التلف والنسيان.
الكلمات الدالة : السيرة، التقصير، الحذر، الأمانة.

مقدمة

لا يخفى أن ما تتناقله كتبُ السير والتراجم من أخبار، ينطوي على كثير من المحاسن في الحفاظ على المخزون التاريخي وتحصينه من التلف، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بالتراث وبالشخصيات الفاعلة فيه. وبقدر تعدُّد هاته الكتب واختلاف مشاربها، تَثبُت مصداقية أصحابها في نقل الخبر ؛ إلا أن هذا الخبر، عندما ينفرد به مصدر واحد ووحيد، سواء كان هذا المصدر كتابا أو شخصا عاين الموضوع، فإن مجال البحث العلمي فيه، يضيق، ولا يتسع للبحث الاستقصائي الحقيقي.

1 - توفي في سنة 1490.

لقد نقل عدد من أهل السير، أخبار ابن يوسف السنوسي التلمساني، وساهموا في التعريف به، إلا أن خطابهم أضحى مجرد نسخة واحدة، ما دام المشرب الذي نهلوا كلُّهم منه، وحيدا وفريدا ؛ وفي هذه الحالة، تتقلص مساحة نقد المنقول فيها، وتترجح اضطرارا، مصداقيتُه باعتباره نسخة فريدة، لا تنافسها وثيقة أخرى غيرها.

ولكن أحيانا، لا يدري الباحث في هذا الميدان، من أين يأتيه الخبر المغاير لهاته النسخة، ولا كيف يتقدم إليه، من داخل الكتاب أو من خارجه. وهـذا هو شأن كتاب "المواهب القدوسية في المواهب السنوسية" للملالي تلميذ السنوسي.

ولعل عملية تقويم عام لهذا الكتاب، تفيدنا في التمييز ـ في خطابه ـ بين ما هو صادق، وما هو غير ذلك. وقبل التطرق لهذه العملية، من المفيد أن نعرض باختصار حياة مؤلِّفه.

I- حياة المؤلف، شخصيته ومؤلفاته

لا نعرف الكثير عن صاحب المواهب ؛ وكل ما نعرفه، هو فقط، ما يمكن استنتاجه مما طالعناه بين السطور في بعض كتب السير التي لم تتعرض صراحة، ولا مباشرة لترجمة الرجل، وما وقفنا عليه مما قرأناه من مؤلفاته المتوفرة. والمتوفر لدينا، لا يتعدى كتابين: كتاب "المواهب" و"شرحه لعقيدة شيخه الصغرى".

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني، ينحدر من "ملالة"، وهي من ضواحي مدينة بجاية، استقر مع والديه بتلمسان، ولد فيها، وترعرع في بيت متواضع ومحافظ، يميل إلى حب الأولياء الصالحين والمتصوفة ؛ وتعلم بها العلم على علمائها، أبرزهم محمد بن يوسف السنوسي وأخوه علي التالوتي. وانحصرت حياته في اقتفاء طريقة الأولياء والمصلحين، وحبِّه لهم. ويُعتبر الملالي في مجال علاقات الدارس بشيخه، التلميذ الدائم للسنوسي، وكذا ذراعَه اليـمنى، والصاحب الأمين[2] له الذي يرافقه مرارا وعلى مدى الأيام، إلى الطبيعة، وخاصة في أعالي سهول وجبال جنوب تلمسان الصحراوي. فكان يحب التفسّح مع شيخه، وأحيانا بمعية والده عمر الملالي. وكان أكثر أصحاب الشيخ وتلامذته قربا من عائلته، من حيث إنه كان يدخل بيته، ويكلم أهله في أثناء حياته وبعد وفاته[3]. ومن مؤلفاته كتاب "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية"[4] وكتاب

---

2 - ويبدو ذلك من خلال قوله: " إني تكلمت في هذا، دون أصحاب سيدي الشيخ، ولست بأفضلهم " (خاتمة كتاب المواهب).

3 - قال: "وأخبرَتني السيدة الفاضلة الخيُّرة، عائشة زوجة الشيخ رضي الله عنه، قالت لي حفظها الله تعالى: أقام سيدي أبو القاسم الكنابشي عندنا في الدار شهرا كاملا، وهو يقرئ الشيخ ـ تعني زوجها ـ كتابا في التوحيد، بدأه عليه من أول الشهر، وختمه في آخر يوم من الشهر، رحمهما الله تعالى ورضي عن جميعهم". (المواهب، ص. 32-31).

4 - محمد الملالي، المواهب القدوسية في مناقب السنوسية، مخطوط لمصطفى العشعاشي.

"شرح العقيدة السنوسية"[5] ؛ الأول خصصه لشيخه تبركا به، وتعبيرا عن محبته له، وتخليدا لمناقبه العالية. ولقد ألفه سنة 897 هـ، في أوائل جمادى الآخرة، أي بعد حوالي سنتين من وفاة شيخه. أما الكتاب الثاني، فوضعه استجابة لبعض المحبين، ويشرح فيه العقيدة الصغرى لشيخه والمشهورة بـ"السنوسية"، شرحا مختصرا "يغنيهم وغيرهم من المبتدئين عن فهمهم "[6]. وبهذا الكتاب، يعتبر الملالي من أوائل الشارحين لهذا المتن. وعن وفاة محمد الملالي هذا، يذهب الأستاذ أبو القاسم سعد الله، إلى أن الغالب عنده، هو أنه عاش عقدا أو عقدين في القرن العاشر، اعتبارا من دعوى ابن مريم صاحب "البستان" مُفادها أنه كان تلميذا للملالي[7].

II- مقاييس تقويمنا للكتاب

لا يمكن في مجال التقدير الصحيح، أن توزن الأشياء بدون وحدات قياسية مناسبة ومحدَّدة، اللهم إلا إذا كان الغرض من ذلك، مجرد اجتهاد اعتباري بعيد عن الأحكام التقريرية. ونحن هنا، لا نبتغي دراسة كتاب المواهب ولا فحصَه، وإنما نود الوصول ـ عن طريق قراءته ـ إلى تقويم أخباره من الجانبين الإيجابي وغير الإيجابي. ولهذا الغرض، ارتأينا أن نردّ مقاييس تقويمه إلى ثلاثة:

1 – الأول داخلي يتمثل في الكتاب نفسه، موضوع التقويم ؛

2 – الثاني خارجي يتمثل في آثار السنوسي المكتوبة ؛

3 – وأما الثالث، فإنه أيضا خارجي، إلا أنه يتمثل في الواقع الاجتماعي للعصر، عبر تقاليد الناس في أسلوب كتابتهم ومنهجيتهم، وما أَلِفوه من قيم ومفاهيمَ.

فالمقياس الأول، هو المعيار الداخلي الكفيل بأن يزن الأخبار على لسان صاحب التأليف (أي المترجِم)، كأن يؤكد الخبر بنفسه أو يتردد في مصداقيته أو يثير عندنا الشك، أو يحملَنا على بعض الاستنتاجات.

والمقياس الثاني، ينحصر فيما تركه المترجَمُ من آثار مكتوبة تشهد على عدد مؤلفاته وموضوعاتها، وأفكار صاحبها. وقد يتسع هذا المقياس، ليشمل مصادر أخرى إن وجدت[8].

وأما المقياس الثالث، فإنه يكشف عن الذهنية التي دأب عليها الناس في عصر المترجِم (موضوع الترجمة)، في مجالات دينية وفكرية وثقافية، أي في ميولهم

5 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 22.

6 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة الأولى.

7 - د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط. 2، ج. 1، 1985، ص، 68.

8 - والمقصود بهذه المصادر، ترجمات أخرى مستقلة عن الترجمة موضوع التقويم، أو بعض الآثار التي يكتبها مقرّبون من صاحب الترجمة كتلامذته مثلا.

واعتقاداتهم، وفي منهجية تواصلهم ولغتهم، وكذا في طبيعة انشغالاتهم. وعلى ضوء هاته المقاييس، نتساءل ما هي مزايا الكتاب، وما هي المؤاخذات التي يمكن أن توجه له ؟

III- مزايا كتاب "المواهب القدوسية في مناقب السنوسية"

لقد تحدث الملالي فيه عن شخص هو ابن يوسف السنوسي، عالم التوحيد ومعلم العقائد الدينية ؛ وتشهد على وجوده وأعماله وأفكاره، مؤلفاتُه التي تختزنها الرفوف والمكتبات، ويثبتها على مر العصور، الدارسون لها، والمهتمون بها، والمعجبون بها. وقدَّم هاته الأخبار، بأسلوب يعبر عن روح العهد الذي عاش فيه، ولا تبتعد كثيرا عما ألِفه الناس من معتقدات.

إن المكانة المتميزة التي يحتلها هذا الكتاب، والتي جعلت الباحثين يسعون بإلحاح إلى طلبه، إنما هي كونه المصدر الأساسي الوحيد الذي تَكفَّل بتقديم سيرة ابن يوسًف السنوسي. وهو المشرب الأول الذي نهل منه عمداء المترجمين للشيخ السنوسي، وعوّلوا عليه في أخباره ؛ ويبدو أن الغرض من هذا التأليف هو استجابةٌ لما كان يكنّه المؤلف لأستاذه من تقدير وتبجيل، وشهادة للمنزلة التي كان يتبوؤها في مجال العلم والصلاح. ولولا هذا الكتاب، ما كان الشيخ ليذكَر اسمُه، في أمهات التراجم بالقدر الذي وصلنا به. ولم تعُد بعدَ هذا، كتب السير والتراجم تتعامل مع الشيخ السنوسي إلا على أساس تناقل هذه الأخبار جملة أو تفصيلا، تبركا بذكره أو لضرورة قاموسية معجمية. وتناولها المستشرقون وغيرهم قديما وحديثا. ومن أشهر ما تناولت هاته الأخبار عن الرجل، "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي، و"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "لابن مريم، و"دوحة الناشر "لابن عسكر، و"تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي، و"كشف الظنون "لحاجي خليفة، و"إيضاح المكنون" لإسماعيل باشا، و"دائرة المعارف الإسلامية"، و"الأعلام"، و"معجم المفسرين"، و"معجم المؤلفين"، و"معجم المطبوعات العربية ".[9]

وهو كتاب لا يفيد فحسب، في معرفة ترجمة الشيخ السنوسي، وإنما يفيد أيضا، في إلقاء أضواء على الفترة التاريخية التي عاصرها الرجل، في شتى المجالات التعليمية والاجتماعية والسياسية والدينية والأخلاقية والفكرية. فهو يهم رجل الدين، بقدر ما يهم أيضا، المؤرخ، وعالم الاجتماع، وعالم التربية، ورجل السياسة، والمفكر، فضلا عن السينمائي.

---

9 - جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع، 2003، ص. 316-315 .

هذا باختصار، بعض ما يزخر به، كتاب "المواهب" من فضل ومن سموٍّ، بعد الأخذ بالمقاييس الثلاثة الخاصة بتقويمه. إلا أن الاستمرار في تطبيق هاته المقاييس على هذا الكتاب، ولكن من زاوية أخرى ـ وهي زاوية اختبار بعض الأخبار الواردة في المصنف ـ سيوقفنا على جملة من الهفوات التي بها نؤاخذ صاحبه.

IV- المؤاخذات التي توجه له

أولا: اختصاره للسنوسي في مجرد وليّ من خلال نزعة الملالي الصوفية:

بادر الملالي في مقدمته للكتاب، برسم الطريق الذي يجب على القارئ أن يسلكه لقراءة السنوسي، وحدد له الزاوية التي يتحتم عليه أن ينظر منها إليه، وهي أن ملمح الرجل الذي يليق بمقامه، هو أنه مجرد ولي صالح تابع لزمرة المتصوفين العابدين. وضمَّنها الحديث عن أحوال أولياء الله في الدنيا، وزِيًارتهم ومجالستهم ومحبتهم، قصد تقوية قلب سالك طريق الآخرة. ولعله من الأسباب التي أملت عليه هاته المنهجية، أنه كان ينظر إلى شيخه من هذه الزاوية، وأن العصر الذي عاش فيه، فشت فيه موجة الزهد والتصوف والانسحاب من الدنيا. يقول الملالي: " الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بأنوار معرفته، وأزال حجاب الغفلة حتى شهدوا عظيم جلاله وعظمته [...]، فإني عزمت في هذا التقييد المفيد، [...] أن أذكر فيه جملا من فضائل شيخنا الإمام البالغ في التحقيق، والورع منتهى المرام، قطب الوجود، البركة الشاملة لكل موجود، وروح خلاصة أهل الإيمان، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن، يَتقرب إلى الله تعالى به كل صديـق، ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق، وهو إمام المتقين، سلطان العارفين، وقدوة السالكين، ومنقذ الصالحين، صاحب الإشارات العلية، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية والأنوار المحمدية، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء آثارها..."[10].

ويقول أيضا: "وما حَملَني على وضع هذا التقييد المفيد إلا كثرة محبتي لهذا السيد الشريف الذي قيَّدنا بجميل إحسانه إلينا، وأفاض من بركاته وأنواره علينا".

ويضيف أيضا: "فإذا نظر العاقل اللبيب فيما حوته هذه المقدمة، فلا يمل النظر فيما بعدها، بل يتلذذ القلب بها، وبما بعدها ويفرح بذلك غاية الفرح إلى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى".

وبعد كلام عن الأولياء الصالحين الذين مسحوا أيديهم من الدنيا، وأقبلوا على التصوف وًالممارسات الروحية، يقول: "فهكذا كان حال الشيخ سيدي ومولاي محمد بن سيدي يوسف السنوسي رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به، وجمعنا

10 - المواهب، مقدمة الكتاب.

معه في أعلى الفردوس".

وتشتمل المقدمة على عشرة أبواب وهي:

الباب الأول: في التعريف بأشياخه

الباب الثاني: في كراماته، ومكاشفاته

الباب الثالث: في علمه وزهده، ووعظه وورعه، ورفع همته وحلمه وصبره، وسراد طريقته وشمائله

الباب الرابع: في عدد تآليفه، وما قيل في بعضها من الشعر، وما حدثنيه بخبر بعض تآليفه

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها، وأزال ما ظهر من إشكال فيها

الباب السادس: في تعبيره لما أشكل من الأحاديث النبوية، وما استنبط منها من الأحكام الشرعية

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق

الباب الثامن: في ذكر أوراد حض عليها جل تلامذته، وأصحابه، وذكر أدعية حسنة، كتبت بخطه

الباب التاسع: في وفاته، وما اتفق له في أيام مرضه رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به آمين

الباب العاشر: في ما قاله من الشعر، أو قيل فيه.

والتقصير الذي نسجله، ونحن نقف أمام هذه القائمة من العناوين، ونستقرئها من أولها إلى آخرها، هو أن الملالي لم يخصص بابا واحدا حول علم التوحيد الأشعري الذي أفنى السنوسي عمره في إحيائه ونشره، والذي طارت شهرته به. وأنه بالغ في الباب الأول (أي في التعريف بأشياخه)، وأطنب في حديثه عن إبراهيم التازي الذي ألبس السنوسي الخرقة ... وبالقياس إلى غيره من الشيوخ ؛ لقد خصص له حوالي (227) سطرا، وحوالي (173) سطرا لمن بعده في الاهتمام، وهو علي التالوتي أخو السنوسي من أمه، وأفرد للباقي الأعظم ما لا يتجاوز (9) أسطر فقط. وكأن التكوين الذي شكل شخصية السنوسي هو بالدرجة الأولى؛ التكوين الصوفي، وأن المؤثرات التعليمية التي جاءت على يد شيوخه الآخرين، لا معنى لها[11]. وهذا تقصير من المؤلف التلميذ.

هذا فضلا عن مبالغته أيضا، في ذكر الخوارق ورد نسبتها كلها إلى شيخه، عندما

11 - يبدو أن الذي تأثر به في مجال التوحيد، هو الشيخ العالم أبو القاسم الكنابشي. يقول الملالي: " قرأ عليه وأخوه سيدي علي التالوتي ـ رحمة الله عليهما، وقدس روحيهما، وبرد ضريحيهما ـ كتاب " الإرشاد " لأبي المعالي في التوحيد، وأجازهما في جميع مروياته، وكتب في ذلك بخطه رحمه الله تعالى ". (المواهب، ص، 45).

تطرق في الباب الثاني لكراماته ومكاشفته. وواضح أن هاته المبالغة، ناتجة هي أيضا، عن إيمان الملالي بشيء من الشعوذة والاعتقاد العميق بالخوارق خارج سياقها، وعزوفه عن العقليات[12].

ثانيا: وترتب عن هذا، طمس خصوصياته التي يتميز بها، كشغفه بالتوحيد وسعيه إلى نشره وتغلغله في سائر فئات الناس، ودعوته إلى تدريس المنطق، وطريقته العقلية في تأويل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ومنهجيته العقلانية في تناول المسائل الإلهية. وإذا كان الملالي يشير إلى هاته الجوانب التي تعرِّف بشيخه، فإنه فيما يبدو، لا يتعدى المسح السطحي في الإشارة إليها، وكأنها أمور ثانوية بالنسبة إلى مقامات التصوف.

فعندما يتحدث عن علم التوحيد السنوسي، فإنه يصنفه ضمن "العلوم الظاهرة"، في حين أن هذا العلم هو ـ عند صاحبه – من العلوم العقلية ما دام موضوعه يتعلق بالإلهيات، فضلا عن أنه يمهد للاهتـداء إلى ما يسمى بالمعارف الباطنية. وبتعبير آخر، إن علم التوحيد مرحلتان متكاملتان، يمكن أن نقول عن الأولى بأنها مرحلة نظرية ومجردة، تتناول ذات الله وصفاته وإرسال الرسل، والثانية بأنها ذوقية عملية، تبيح لصاحبها ممارسة التوحيد بكل كيانه بلحمه ودمه. ولم يكن قصد السنوسي مجرد الدخول في عالم البواطن (أي بغير عتاد)، بقدر ما كان يُعدّ القاعدة الأساسية لفهم التوحيد النظري أولا، والتدرج على أساسها، نحو المكاشفة أخيرا[13].

يقول السنوسي: "وكيف يصح لناظر أن يقول إن الإيمان يجب أولا، قبل النظر، ولا يصح في المعقول إيمان بغير معلوم، وذلك الذي يجده المرء في نفسه حُسْنُ ظَنٍّ بمخبره، وإلا فإنْ تطرق إليه التجويز أو التكذيب، تطرق"[14].

ومن الأشياء الغريبة، أن يطلعنا الملالي عن بعض الأحداث المشكلة، التي كان يُفترض أن يشارك فيها أو يأتي بحل لها دون الرجوع إلى استشارة شيخه. ومن

12 - ومن نسْبه الكرامات للسنوسي دون أن يثبتها الشيخ، وتدل مع ذلك، على ظاهرة عادية: " ومن مكاشفاته أيضا، وقد شاهدتها منه عيانا، ما اتفق له يوما، وذلك أنّا خرجنا معه يوما، إلى الصحراء على عادتنا معه، فأدركنا وقت الظهر، فبحثنا على الماء يمينا وشمالا، فلم نجده. ثم دخلنا في جنان كبير، فبحثنا فيه على الماء، فلم نر له أثرا، وأيسنا من وجود الماء، فقال أبي حفظه الله تعالى للشيخ: ما في هذا الجنان أثر من آثار الماء. ثم قال للشيخ: نبحث عن الماء خارج الجنان. فقال الشيخ: "ولعلنا نجد الماء في هذا الجنان". فقال له والدي: ما فيه شيء. ثم قال لنا الشيخ: جيئا معي ونمضي على هذا الطريق، لعلنا نجد عينا من ماء. وكان هذا الطريق صغيرا جدا تحت أشجار وشوك عظيم، فأبى والدي، فمضى الشيخ وحده، وهو يمشي منحنيا ظهرُه من كثرة الشوك والأشجار، فغاب عنا، فلجأنا إلى اتباعه مع الظن بأنا لا نجد ماء. فتتبعناه، فلما وصلنا إليه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، وجدناه جالسا على عين ماء باردة، وهي في موضع خفي ؛ فتبسم رضي الله تعالى عنه، وقبلت يده وتعجبنا من عظيم مكاشفته رضي الله عنه، ونفعنا به. (المواهب، ص، 67).

13 - يقول الملالي: " أما العلوم الظاهرة، فقد فاز منها بأوفر نصيب، وحاز في الفروع والأصول السهم والتعصيب، ورمى إلى كل فضيلة ومكرمة بسهم مصيب، ولهذا كان رضي الله عنه لا تتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع، إنه لا يحسن غير هذا العلم لاسيما علم التوحيد، وعلِم المعقول. وقد شارك الفقهاء في هذه العلوم الظاهرة، ولم يشاركوه في العلوم الباطنة،... (المواهب، ص، 99) ليس ثَمَّ علم من العلوم الظاهرة يورث المعرفة بالله تعالى والخشية منه، والمراقبة له إلا علم التوحيد. (المواهب، ص، 113)".

14 - السنوسي، شرح العقيدة الصغري أو أم البراهين، ص، 114.

ذلك، لقاؤه بيهودي يدّعي بأن نبوءة النبي محمد صلى الله عليه وسلم غير مذكورة في التوراة. ولإقناع اليهودي بخطأ ادعائه، رجع الملالي إلى شيخه يطلب منه الدليل، والدليل هو قوله: "ارفع له،"شرحنا على قصيدة سيدي أحمد الجزائري"، أو "شرحنا على عقيدتنا الوسطى"، واسرد له عليه تلك النصوص المنقولة من "التوراة"، ومن سائر الكتب الماضية." قال الملالي: "فرفعتُ له شرح الشيخ على القصيدة المذكورة، وسردت عليه جملة منها، وهو ساكت. ثم سردت عليه نصا آخر، وهو ما جاء في "السفر الخامس من التوراة".[15]

وهنا، نتساءل: لماذا لم يتجرأ الملالي في الرد على اليهودي في مسألة كان قد عالجها شيخه، في أكثر من مصنف ؟ ألم يكن ذراعه اليمنى في مجالساته ومصاحباته ؟ ألم يكن جديرا بتولي هاته المهمة تخفيفا عن شيخه. فهل خدعته الذاكرة إلى درجة أنه يسكت عن محتوى الجواب، وقد أورده الإمام السنوسي من خلال دروسه وكتاباته ؟ وهل كان يدرك إدراكا جيدا، كل مضامين هاته الدروس وهاته المؤلفات ؟

ومن ذلك أيضا، أن والده ـ " لما قرأ على الشيخ رضي الله عنه، عقيدته الصغرى، وختمها عليه بالتفسير غير ما مرة، رأى أنه قد ثقل عليه درسها، وحفظها لكبره، وكثرة همومه. فطلب من الشيخ رضي الله تعالى عنه، أن يجعل له عقيدة أصغر من الصغرى بحيث يمكن درسها وحفظها. فعمل له هذه العقيدة، وكتبها له بخطه[16] ". والذي كان يُفترض في هذا الموقف، أن يوجَّه الطلبُ للملالي الابن لقربه منه، وترويحا واحتراما للشيخ، الذي تشغله أعباء. وهنا، نتساءل أيضا: هل كان الابن عاجزا إلى هذه الدرجة، ليستجيب لوالده، أم الأمر يتعلق مسبقا بتبرير ضرورةٍ بيداغوجية، تدخل في نطاق النسق التربوي الشامل للسنوسي ؟

ومن ذلك أيضا، تكليف السنوسي بعض الطلبة دون الملالي، بمهمتي إقراء بعض العلماء لكتاب صعب ألفه، وتقدير صداه. جاء في المواهب أن الشيخ ألف شرحا وضعه "على نهج طوالع البيضاوي ؛ بل أصعب، ولم أر هذا الشرح ؛ إلا أن الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه، أخبرني به وبهذا الكتاب، وقال لي، هذا الكتاب وهو على نهج البيضاوي[17] ؛ بل كلام البيضاوي أسهل بالنسبة إلى هذا الكتاب. قال، وكلامه صعب في غاية الصعوبة. قال، وشرحته بكلام صعب، إلا أنه أبين من هذا المشروح. قال، ولما شرحته، رفعه بعض الطلبة لبعض من عاصرنا من العلماء. قال، وأوصيت الطالب ألا يقول لأحد فلان،

15 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 103.

16 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 242.

17 - هو عبد الله بن عمر المتفلسف الذي توفي على ما قيل قبل سنة 1282 م. من جملة مؤلفاته " منهاج الوصول إلى علم الأصول "، و"طوالع الأنوار " في الإلهيات. ولقد انتقد السنوسي مؤلف الطوالع بشدة، لخلطه علم التوحيد بالفلسفة.

يعني نفسَه، هو الذي شرح هذا الكتاب. قال لي، فقال الطالب للعالم، يا سيدي أحب أن أقرأ عليك هذا الكتاب المشرقي مع شرحه. قال، فقال له العالم، وهل شرَحه أحد ؟ قال، نعم. قال، فأخرجه إليه، وأراه إياه، وظن العالم أن هذا الشرح قديم، ولم يعلم بأنه شرحي. قال، فقرأ الطالب عليه شيئا من هذا الشرح. فقال له العالم، أعد عليّ قراءته. فأعادها، فلم يفهمه هذا العالم ؛ قال، فقال له العالم، هذا الشرح لا يفهمه إلا الذي وضعه، وأنا لم أفهم ما يقول شارح هذا الكتاب، الله يرحم هذا الشارح ؛ أو كما قال. هكذا، حدثني الشيخ بهذا الكلام، وهو بالمعنى، ولم أتحقق عين كلامه، لطول العهد به، وسمى لي الشيخ رضي الله عنه هذا العالم، ولا يسعني تعيينه.

قلت، ولا شك أن هذا العالم عارف بالعلوم العقلية والنقلية، وقد حضرت مجلسه مرات كثيرة، فما رأيت أحفظ، ولا أذكى منه، ومع ذلك لم يفهم كلام الشيخ رضي الله تعالى عنه "[18].

ومما يثير الحيرة، هو أن التلميذ المقرب إلى الشيخ، هو الأوْلَى والجدير بهذا النوع من التكليف. فهل كان الطالب المختار المكلف أقرأ من غيره للكتاب الصعب، وأكثر إدراكا لمحتواه ؟ وإذا كان من المحتمل جدا، أن يكون هذا الكتاب على نمط المتفلسفين، فإن الأقدر بهذه المهمة والأجدر هو من يرضى بالتعايش بين التصوف والتفلسف. ويبدو أن قلب الملالي الذي كانت تغمره قوة النزعة الصوفية، يضيق بهذا التعايش.

ثالثا : مخالفاته لشيخه في مفهوم الذكر، ومحاربة التقليد

1 - استبدل الملالي مفهوم الذكر، بمفهوم التصوف، مع علمه أن السنوسي يفضل التعبير عن حياته الذوقية بمصطلح "الذكر" عن مصطلح "التصوف"، لأن الذكر في رأي الشيخ، مفهوم أبسط من مفهوم التصوف وأغنى وأوضح ؛ ومن الآيات التي يذكرها وتناسب المقام، قوله تعالى: "ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن"[19] ؛ وقوله تعالى: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[20]. وإنِ الشيخ استعمل لفظ التصوف اضطرارا، فذلك لتعلق الأمر بالحديث عن حياة غيره الذوقية بلغتهم ومفرداتهم، أو بغرض تنبيههم وتحذيرهم[21]. ومن هنا، يمكن القول إن الملالي تأثر بنزعة المتصوفة على

18 - محمد الملالي، المواهب، مخطوط، ص، 252.

19 - الزخرف، 36 ؛ نصرة الفقير، تحقيق تابع لكتاب " الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد "، لـ جمال الدين بوقلي حسن، 1985، ص، 414.

20 - سورة ق، 37 ؛ السنوسي، نصرة الفقير، ص، 425.

21 - جمال الدين بوقلي حسن، ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وغي الواقع، 2003، ص، 549. لقد تكررت كلمتا (الذكر) و(ذاكر) أكثر من ستين مرة وتركزت في أوراق لا تتعدى العشر. (المصدر نفسه، ص، 548).

حساب طريقة شيخه مع "الذاكرين".

والغريب أيضا، هو أنه يتابع شيخه في مسألة الذكر، عندما يؤلف الملالي شرحه لعقيدة شيخه الصغرى. ولعل متابعته له، ناتجة اضطرارا عن كون مقطع متن العقيدة يحمل فعلا، مفهوم الذكر ومشتقاته ويتكرر أربع مرات[22]. وكان لا يمكنه التملص من هذه التبعية.

2 - وهو على الرغم من أنه في " المواهب"، سجل بوفاء تصدي شيخه للتقليد، إلا أنه خالفه ـ هو وكثير من رفقائه في الدراسة ـ في التطبيق ليسقط في الاتباعية: إنه يبدي الاتباعية لشيخه في بعض الأمور، وخاصة في اختصاره شرحا، لصغرى السنوسي. وهنا، نتساءل: وهل كان في حاجة إلى شرح مختصر للعقيدة السنوسية تنازلا لطلب بعض المحبين، وشيخُه كان قد ألف شتى المتون في العقيدة لكافة فئات الناس، للخواص والمتوسطين وكافة العوام من أعقلهم إلى أبسطهم، ومن العجزة والنساء إلى الصبيان والإماء والعبيد ؛ وأنه على الرغم من إشارته إلى ما يوحي بمرحلة الربوبية التي تسبق مرحلة العبودية عند السنوسي، إلا أنه مر على هذه المرحلة الأولى والأساسية، مر الكرام في كتابه المواهب، وغيَّبها في شرحه المختصر للعقيدة السنوسية، وكأنه يسعى فقط، إلى إبراز مقام العبودية باعتبارها عند الملالي أكبر أهمية، لأنها تتعلق بالتصوف ؛ وكل ذلك، لأن الملالي كان بدون شك، يكتب عن شيخه بعيون الأولياء وقلوب أصحاب الأحوال.

يقول الملالي: "وقال [السنوسي] رضي الله تعالى عنه، في قوله سبحانه وعلا، (مَلِكِ يَوْمِ الدينِ)، ما نصه، لما عرف سبحانه بما يجب الإيمان به من العقليات، عرف تبارَك وتعَالى هذا الوصف، لما يجب الإيمان به من السمعيات، إذ العقل غايته أن يحكم بجوازها، ولا طريق له بدون الشرع، إلى معرفة ثبوتها أو نفيها.

وقدم سبحانه النوع الأول على الثاني، لتوقف صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين هم الطرق لمعرفة السمعيات، على معرفة المولى تبارك وتعالى طريقها البرهان العقلي[23].

ولنا كذلك، أن نسأل: لماذا عند كلامه عن العبودية، لم يذكر الملالي قبل ذلك الربوبيةَ، احتراما لمنهجية شيخه ؟[24] وفي الجواب، يبدو لنا، كأنه مصرّ على أن يختار من كلامه، ما يفيد التصوف[25].

وكان الملالي فعلا، يكتب عن شيخه بعيون الأولياء وقلوب أصحاب

---

22 - محمد الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 26.

23 - المواهب، ص، 263.

24 - المواهب، ص، 179.

25 - المواهب، ص، 183.

الأحوال ؛ يقول: "وفي تأخير الخطاب بالعبادة عما أرشد سبحانه إليه، من معرفته بما يجب له، وما يستحيل، وما يجوز، تنبيه على أن أول ما يجب على المكلف، إتقانه معرفة مولاه العظيم جل وعلا، ثم بعد ذلك، يتوجه إليه بالعبادة، إذ على قدر معرفته بمولاه تبارك وتعالى، يكون حسن عبادته جل وعلا"[26].

ويقول الملالي: "وقوله، (فَقُلْتُ لاَ شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ) يعني، فقلت بقلبي لمّا أن عَرفْتُه بالبرهان القاطع، وتميَّزَ لي عن كل ما سواه: لا شكَّ ولا رَيْبَ أنت يا مولاي هو الموصوفُ بهذه المحاسن التي أبْصَرَتْهَا بالبرهان عَيْنُ قَلبِي. وإنما رَتَّبَ القَوْلَ على رؤية القلب ـ وهي معرفتُه بالله تعالى ـ تنبيهًا على أنّ حصول الإيمان هو عند حصول المعرفة، لأنّ الإيمانَ ـ على الأصح ـ هو حَدِيثُ النَّفْس التابِع للمعرفة. ويحتمل أن يكون مرادُه برؤية عَيْنِ القَلْبِ، المَعرفَةُ الذوقِيَّةُ الَتي هي آخر مَقامَاتِ السالكين، فيكون حينئذ معنى قولِه، (أَنْتَ أَنْتَ) أي أنتَ الآن بحَسَبِ المَعرفة الذوقية هو أنْتَ أوَّلاً، بحسب المَعرفَة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقَلية "[27].

والملاحظ هنا، هو أن الملالي يتفادَى بلورة وصف (معرفة الله بالبرهان)، كمقام للربوبية.

رابعا : تقصير الذاكرة وغياب التعليل وكثرة الاستطرادات

1 - التردد في ضبط الأخبار

إن الملالي يعترف بضعف ذاكرته في كثير من الحالات، ويعبر عن ذلك ببعض العبارات التالية:

وأظنه قال ؛ أو كما قال ؛ والله أعلم بذلك كله ؛ ونقلته بالمعنى ولم أتحقق عين كلامه لطول العهد به ؛ ربما ؛ قول يقرب من هذا ؛ كلام يقرب من معناه ؛ يشتبه علي أنه قال ؛ وأظنه قال لي ؛ وفي هذا الدعاء بعض زيادة، وتعيين، لأني نقلته من حفظي ؛ قلت، والدعاء الذي ذكره الشيخ رضي الله تعالى عنه قبل هذا، أن فيه بعض زيادة وتغيير لأني نقلته من حفظي. وهكذا...

ومن تقصيره في ذكر مؤلفاته، لم يذكر "المناقب الأربعة" ولا "نصرة الفقيّر في الرد على أبي الحسن الصغيّر" على الرغم من أنه يكشف في "المواهب" أن بعض ما كتبه ابن صعد هو من تقييدات السنوسي التي راسل بها تلميذه ابن صعد ؛ ويعبر عن هذه المراسلة في قوله:

"وحدثنا شيخنا سيدي محمد السنوسي رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وكتب به إلى سيدي محمد بن صعد حفظه الله تعالى الذي ذكر في كتابه المسمى بـ"روضة

---

26 - المواهب، ص، 266.

27 - المواهب، ص، 388.

النسرين" [جملة كافية من الأخبار]، وبعضهما متقارب"[28].
أما رسالة "نصرة الفقير" فإنها تنصاغ في روح فكر الشيخ ومذهبه الأشعري، ونُسَخُها المخطوطة منتشرة في بعض مناطق البلاد العربية[29].

2 - تقصيره في الدفاع عن شيخه، وفي التعبير الأمين عن بعض مقاصده

– لم يوضح الملالي بالدقة الكافية لماذا كان السنوسي منبوذا وسهما لإساءات الناس ـ وخاصة الخواص منهم ـ التي كان يعاني منها، والتي كانت تطال عرضَه وشرفه وكتاباتِه الابتداعية. ويكتفي مثلا بالقول: "فتجده لا يحقد على أحد، ولا يظهر العبوسة في وجه من أساء إليه، بل إذا لقيه الرجل الذي تكلم في عرض الشيخ، بدأه الشيخ بالسلام، وفاتحه بالكلام والتحية والإعظام، ولا يُظهر له ما يدل على الملام"[30]. وبقوله أيضا: "لما ألف بعض عقائده، وأظهرها للوجود بنيَّة نفع المسلمين، أنكر عليه بكثير ممن لا يعرف قدره من علماء زمانه، وتكلم في عرضه ونسبه، بعضُهم إلى ما لا يليق بقدره، ورأوا بزعمهم، وفساد خيالهم أن ما فعله الشيخ من إظهار العقائد من أكبر البدع، وأن ترْك ذلك هو الورع. فلما سمع الشيخ بذلك، تغير تغيرا عظيما، وبقي محزونا كئيبا نحو من ثلاثة أيام"[31]. ويقول أيضا: "المبدع لا بد من أن يتحلى بالصبر عن الأذى [...] ولهذا كان رضي الله تعالى عنه، يفضل بعض من أساء إليه على بعض من يمدحه. ولقد حدثني رضي الله عنه عن بعض علماء زمانه من الذين كانوا يذمّونه، ويسيئون إليه كثيرا"[32].

وأمام هذا المشهد المُهين، نتساءل: هل كانوا يؤذونه لمجرد ممارسته علم الكلام أو لكونه خلع على هذا العلم الطابع العقلاني مع العلم أن الطابع العقلاني في عصره، كان يعني ممارسة المنطق الأرسطي وشيءٍ من التفلسف؟ ألا تكون الأسباب في ذلك، أبعد من هذا الميدان، بحيث يرجع الأمر إلى تحصين المدرسة ـ التي كان يدعو إليها ـ من خلط الدين بالسياسة ؟ ثم كيف يقدحون في عرضه، ويستمد نسبه الشريف من جهة أم أبيه ؟

ولم يسلم أيضا، من آفة التقصير، حتى في شرحه للعقيدة السنوسية أي خارج "المواهب". ويُلاحظ ذلك، في التعبير عن الارتقاء إلى الغاية السامية التي كان يستهدفها شيخه في مسألة الإيمان الحقيقي. ففي قوله عن الشهادة: "ولعلها

28 - محمد الملالي، المواهب، ص، 60-45.

29 - وقد حققنا هذه الرسالة، ضمن كتاب " الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ".

30 - المواهب، ص، 194.

31 - المواهب، ص، 194.

32 - المواهب، ص، 211.

لاختصارها مع اشتمالها على ما ذكرناه، جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام، ولم يقبَل من أحد الإيمان إلا بها". فإن الشيخ بالنظر إلى مذهبه العقلاني الشامل، لم يكن يقصد بالقلب هنا، ما يفهمه أهل التصوف أي مجرد مصدر للذوق والمكاشفة، وإنما التقاء العقل المفكر، بالقلب الذواق ؛ وهذا يعني أن من يمارس هذا اللقاء، فإنه في الوقت الذي يُقبِل فيه على المكاشفة، فإنه لا يتجرد عن مكتسبات العقل العقدية التي يسميها السنوسي بالربوبية، لأنه لا عبودية بدون ربوبية. ومن هنا، فإنه لا يسقط في الغفلة، ولا في الشطحات، ما دام واعيا بالتوحيد النظري.

ويقول الملالي تعقيبا على شيخه: "ليس المراد بالإسلام في كلام الشيخ، الإسلام الشرعي، بل مراد الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام، وهو الانقياد والإذعان بالقلب لامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه"[33]. والتقصير هنا، واضح من حيث اختزال القلب في الاستسلام دون سابق معرفة بالتوحيد النظري.

هذا، وفي الوقت الذي يقول فيه السنوسي: "فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان"، يقول الملالي: "اعلم أنه يجب على كل مكلف أن ينطق بهذه الكلمة المشرفة مرة في العمر، وينوي بها الوجوب. وما زاد على المرة، فهو مستحب"[34].

فإذا نحن اقتصرنا على تحليل هذين القولين دون غيرهما، فإننا نلاحظ تفاوتا بين مفهومي÷(العقل) و(التكليف)، وبين (الواجب) و(المستحب)، وبين (الاستحضار العقلي للعقيدة) و(النية بوجوب الشهادة)، وكذا اختلافا في مدة المداومة على الذكر.

(فالعاقل) لدى الشيخ يقابله التلميذ بـ(المكلف)، و(يكثر من ذكرها) يقابلها بـ (مرة في العمر)، و(مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان) يقابلها بـ (ينوي بها الوجوب. وما زاد على المرة فهو مستحب). ومصدر الخلاف بين الرجلين في اعتقادنا، ينحصر في كون الشيخ يركز على مقام الربوبية قبل العبودية، وفي كون التلميذ يميل كثيرا إلى العبودية حيث يرى مُدركُها أسرارا ربانية وعجائب نورانية.

3 – هذا فضلا عن وقوعه في استطرادات كثيرة تأخذ العشرات من الصفحات التي معظمها تدخل في نطاق تدعيم النزعة الصوفية التي ليست قريبة من سياق مذهب السنوسي. ونقدر عدد هاته الصفحات بالقياس إلى الكتاب، بحوالي 20 % على أساس أنها تمثل 64 صفحة من مجمل (333) صفحة ينطوي عليها الكتاب.

---

33 - الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 26.

34 - الملالي، شرح العقيدة السنوسية، مخطوط، الورقة 27.

ومع ذلك، ومن المحتمل ـ وهو احتمال ضعيف ـ أن يكون كتاب "المواهب" بكل هاته المؤاخذت، قد ساهم في إنقاذ تراث السنوسي من التلف والتغييب، إنقاذا مقصودا أو غير مقصود ؛ وذلك، لأن الملالي، شاءت الصدف أن يقدم شيخه وليا صاحب كرامات، متصوفا زاهدا تبعا لمقاييس العصر الذي كان فيه، روح الاعتقاد في الخرافات والميل إلى الخوارق، منتشريْن. وبهذا، تكون قد تهيأت للشيخ الأسباب المواتية لاحتضان أخباره ؛ فلو كان الملالي قد عكس الصورة الكلامية الحقيقية والمنطقية والفلسفية التي كان يحملها فكر الشيخ، لكان المجتمع يضطهدهما معا أي هو وشيخه. يقول الملالي، في خاتمة مقدمته للمواهب: "ولكن جعلت ذلك لتعلموا محبتي لسيدي الشيخ، وليتأدب معه من لم يره، لئلا يتكلم في حقه بما لا ينبغي رحمة الله تعالى، ونفعنا به".

المراجع

قائمة المخطوطات

1 - الملالي، محمد. المواهب القدوسية في مناقب السنوسية، مخطوط في حوزة مصطفى العشعاشي.

2 - الملالي، محمد. شرح العقيدة السنوسية، مخطوط رقم (KA – 4- 16/20)، خـزانة المخطوطات للشيخ الموهـوب بن الحبيب، بجاية.

قائمة المراجع

3 - بوقلي، حسن جمال الدين (2003). ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع. ANEP، ص.315 - 316، الجزائر.

4 - سعد الله، أبو القاسم (1985). تاريخ الجزائر الثقافي. ط.2، ج.1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

5 - السنوسي، ابـن يوسف. شرح العقيدة الصغرى أو أم البـراهين عن محمد الدسوقي، حاشية على شرح أم البراهين، المطبعة الميمنية، مصر.

6 - السنوسي، ابن يوسف (1985). نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير. تحقيق تابع لكتاب "الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد"، لـ جمال الدين بوقلي حسن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

7 - القرآن الكريم على قراءة ورش.